

## التفاعل بين الأديب العربي والتطور الاجتماعي

تصنيع البلاد وتمكين العامل من المساهمة في ارباح العمل ، وتمكين الفلاح من الارض ، والقضاء على الاقطاعية ، ولو كانت اقطاعية الدولة ، وتمكين المواطن العربي من نتيجة استرجاع الثروة والسيطرة عليها ، لا يمنح الفرص لبعض المظوظين لاكتساب المال ، ولكن برفع مستوى المواطن في العيش والعمل والفكر .

الثورة الاقتصادية هي الاخرى فاشلة حتى الان لانها لم تستجب لحاجات الشعب ، ولم تحقق الهدف منها لرفع مستواه ، ولذلك لم يكن هناك تجاوب وتفاعل بين المثقفين العرب والثورة الاقتصادية ، الا بعض مظاهر التفاعل السلبي حينما يهجو تزار قباني مثلا امراء البترول وحينما يعرض بعض الشعراء والقصاصين باغنياء الصحراء . ولكن الثورة الاجتماعية التي حققتها الشعوب العربية بنفسها هي الثورة السليمة التي لم تفشل ، ولو انها لم تحقق بعد كل اهدافها .

من السهل ان ترصد مظاهر هذه الثورة التي قطعت من عمرها نحواً من ثلاثة ارباع القرن فأتخذت من الحرية شعارها الاول : حرية الفكر من التبعية للخرافات والاساطير ، حرية المرأة من العبودية للرجل وللتقاليد وللجهل والتخلف والرق ، تحرر الفلاح من استعباد الاقطاعيين ومستعمري الارض ، تحرر العامل من استعباد رأس المال وارباب المال ، تحرر الطفل من الجهل والتشرد والاستغلال ، تحرر الانسان من البطالة والتشرد ، تحرر الطبقة المستضعفة من طغيان الطبقات الغنية والاقطاعية والحاكمة .

شعار الحرية هذا دفع بالثورة ان تخوض المعركة في عنف ضد خصوم اقوياء ممثلين في الرجعية الفكرية ، والاقطاعية الوطنية ، والاستعمار والمتعاونين معه ، والرأسمالية الاجنبية والقومية . وان تخوض المعركة ضد التمزقات الاجتماعية التي كانت تهدد وحدة الشعب ووحدة البلد الواحد فضلا عن وحدة الوطن العربي . كانت الطائفية والعشائرية ، والقبلية وصراع البداوة والحضارة في الجزيرة والعراق وليبيا مثلا ، والريف والحضر في مصر ، والبربر والعرب في شمال افريقيا ، والاكراد والعرب في العراق والشام ، والزنج والعرب في السودان والقطبيات والطوائف في لبنان والشام .

كانت المعركة لتحرير الانسان العربي من رواسب التخلف والاستعمار ، وتحرير المجتمع من العراقل التي توضع في طريقه وتقوية القومية والطائفية والدينية .

هذه الثورة كان لها ضحايا ، وكانت لها انتكاسات ، ولكنها مع

يمكن ان تؤكد ان الثورة الحقيقية التي شهدتها الوطن العربي في العصر الحاضر هي ثورة اجتماعية اكثر منها ثورة سياسية واقتصادية .

وانا كان الوطن العربي قد ناضل منذ بداية القرن للتحرر السياسي فان الحرية ازدوجت فيه بالاستعمار . في الوقت الذي كانت تتحرر بعض اجزائه من السيطرة العثمانية مثلا ، كانت تقع تحت السيطرة الانجليزية او الفرنسية ، وفي الوقت الذي كان الاستعمار ينحسر عن اجزاء منه كانت بعض الاجزاء تقع تحت الاحتلال ، وفي الوقت الذي ظن الوطن العربي انه تخلص نهائيا - الا فلسطين - من الاستعمار الغربي ، جاء الاستعمار الصهيوني الغربي ليزحف من قلب فلسطين في اتجاهين يمثلان كمامشة خطيرة نحو قناة السويس والجزولان ، وظل الاستعمار الاسباني جاثما في الصحراء الغربية وفي سبتنة ومليلية وملقعاتهما .

معنى هذا ان الثورة السياسية للتحرر من الاستعمار لم تحقق بعد اهدافها ولذلك ما تزال تستغرق جهود الوطن العربي والمواطنين العرب ، وتستبد بتفكير المثقفين العرب للملتزمين الواعين .

والثورة الديمقراطية لم تحقق بعد اهدافها ، فقد كان التطور الطبيعي لاسترجاع الحكم الوطني في البلاد العربية ان يستعيد الشعب مكانته في الحكم وسيادته في الممارسة ولكن الثورة الديمقراطية اجهضت في بداية عهدها بالتزيف والتزوير والدكتاتورية المقنعة . وظلت الشعوب العربية على الهامش تحكم بغير ارادتها ولا مشاركتها .

ومعنى ذلك ايضا ان الثورة السياسية فشلت ، وظلت الشعوب العربية محجورة ، وظل المثقفون التقدميون بعيدين عن المشاركة في المعركة السياسية ، ونتيجة لذلك لم يكن هناك تجاوب ولا تفاعل بين الاديب العربي والتطور السياسي الا التجاوب السلبي الذي يعبر فيه الشاعر أو القصاص عن ابعاد الشعب عن ميدان المعركة . واكثر ما كان هذا التعبير بالرمز او الابهاء .

واتجه الوطن العربي الى ثورة اقتصادية ذات ابعاد اجتماعية ، فكان اصلاح الزراعي في بعض البلاد ، وكان تأمين مصادر الانتاج في بعض البلاد ، وكانت محاولة استرجاع الثروة المعنوية في بعض البلاد: البترول والغاز والفوسفات على الاخص ، ولكن هذه الثورة لم تحقق الكثير من اهدافها . فليس المهم من الثورة هو المظهر الذي يمثلها استرجاع الارض الزراعية من المستعمرين والاقطاعيين او البترول من الشركات الاحتكارية ، ولكن الهدف هو ان تبلغ الثورة اهدافها في

ذلك نجحت ، رغم أنها لم تحقق بعد كل أهدافها ، لأنها استقطبت مناضلين من مختلف فئات المثقفين . يمكن أن نقول : أن الحكم الوطني في البلاد العربية لم يساهم مساهمة فعالة أو رائدة في هذه الثورة وعلى الأخص في بدايتها ، بل أن الحكم الرجعي في بعض البلاد العربية كان ضد تحرير الفلاح أو العامل مثلا ، وكان ضد التخلص من بعض الطوائف الطائفية أو الكنسية بصيغة دينية أو الاجتماعية التي تسد الإنسان العربي إلى وراء ، كما كان الحكم الاستعماري مصدرا مهما للتمزقات الوطنية والاجتماعية ولإثارة النزعات القبلية والعشائرية والطائفية . لهذا كان المثقفون هم عمدة الثورة الاجتماعية التي نبعث عن الثورة الفكرية ، والتي قامت ضدا على الحكم الاستعماري والحكم الوطني الرجعي معا ،

والمثقفون أيضا كانوا عمدة الثورة في إعطاء البديل للتمزقات الاجتماعية ، فكانت ثورتهم تحمل شعارات حضارية : العدالة والمساواة والوحدة ، والحرية والديمقراطية السياسية والتعادلية الاقتصادية والاجتماعية ، فكان تطور المرأة مثلا نابعا من مبدأ المساواة والعدالة ، وكانت الدعوة إلى الإصلاح الزراعي والقضاء على الإقطاع تابعة عن التعادلية والعدالة الاجتماعية ، وكانت الثورة ضد الطائفية والقبلية والسلالية تابعة عن الفكرة الوطنية والوحدة القومية . وهكذا كانت هذه الشعارات بديلا فكريا اجتماعيا ، وهو الذي أوجد التحول الجذري في المجتمع العربي ، وأعطى لهذا التحول الأسس الحضارية التي يقوم عليها ،

هناك إذن تفاعل بين المثقف العربي والثورة الاجتماعية ، تفاعل خلق وتأثير . ولهذا كانت هذه الثورة بناء متطورة لأن المثقفين بما لهم من تأثير ونفوذ في التوعية الشعبية كانوا يرفعون هذه الثورة ويبعثونها على التطور .

والاديب العربي في مقدمة فئات المثقفين الذين تجاوبوا مع الثورة الاجتماعية وتأثروا بها بمقدار ما أثروا فيها .

صدر هذا التفاعل - أو التأثير - صرح التعبير - من منطلق مهم هو أن الإديب العربي تخلص من النظرة القديمة للاديب فلم يعد الاديب تعبيرا عن المشاعر الفردية ، ولا اجتازا لإحلام المراهقة ، ولا رصدا للكلمات ومباراة في البلاغة الاسلوبية ، ولا خطابة منبرية نستهدت إثارة المشاعر الآتية عن طريق الكلمة المرعدة أو الوترية ، ولكن الاديب أصبح تعبيرا عن التفاعل بين الاديب والمجتمع ، فكانت أولى خطوات هذا التعبير التعرف على المجتمع في تحركاته ، وكانت ثانيا الخطوات التفاعل مع هذا المجتمع بتوضيح الطريق نحو الثورة الاجتماعية ومسارة هذه الثورة وتهدمها بتعميق المفاهيم الثورية وتحليلها ووضعها في الإطار الأدبي في مختلف فنون التعبير من قصيدة وقصة ورواية ومقالة ، ووقوف الاديب إلى جانب الشعب وهو يخوض ثورته الاجتماعية للتخلص من رواسب التخلف والاستعمار .

لا أريد أن اتبع هذا التفاعل في الوطن العربي جميعه ، فذلك يتطلب بحث التجارب التشابهة المختلفة مما للتطور الاجتماعي في البلاد العربية جميعها . وما من شك في أن كلا منها خاضت تجربتها الاجتماعية تتلق أو تختلف قليلا أو كثيرا عن تجارب البلاد الأخرى ويتفق التفاعل بين الاديب والتجربة الاجتماعية أو يختلف قليلا أو كثيرا عن البلد الآخر ، ولكنه - مهما يكن - متنوع تنوع هذه التجارب وإنما سأحاول أن اقتصر على التفاعل بين الاديب والمجتمع في المغرب ، لا إيماننا مني بأقليمية الاديب العربي فهو ادب واحد ، ولا بأقليمية المجتمع العربي فهو مجتمع متشابه أن لم يكن موحدا ، رغم اختلاف الظواهر الناتجة عن تأثير البداوة أو الفلاحة عن الري أو انتظار المطر ، والناتجة عن الطائفية أو بقايا العنصرية ، والناتجة عن تأثير نظم الحكم القديمة التي اختلفت في بعض البلاد - فكانت تركيبة أو اجنبية تستمد وجودها من الترك - عنها في البعض الآخر فكانت وطنية ، والناتجة

عن تأثير الاستعمار اللاتيني أو الإنجلو ساكسوني الخ . . ولكني سأحاول الانتصار على النموذج المغربي لاعتقادي أنه يمثل إلى حد ما النموذج العربي ، ولأن المراسلات الأخرى لو تناولت هذا الموضوع في الإفطار الأخرى لكان هناك تكامل في البحث يمكن أن يجيب عن هذا التساؤل الكبير : التفاعل بين الاديب العربي والتطور الاجتماعي .

التطورات الاجتماعية في المغرب اجتازت في أربعين سنة الماضية مرحلة جذرية ، ذلك لأنها ارتبطت بالتطورات السياسية والنضال في سبيل الحرية . الحركة الوضئية التي تزعمت النضال ضدا للاستعمار الفرنسي والاسباني كان لها مفهوم كامل للحرية ، فلم تكن تفصل حرية المواطن الفكرية والاجتماعية عن حرته السياسية ، كما لم تكن تفصل الاستعمار السياسي عن الاستعمار الاقتصادي والاجتماعي والفكري ، وساعدها على تعميق هذه الشمولية في النضال لدى المواطن المغربي أن الاستعمار اللاتيني : الفرنسي والاسباني استعمار استيطاني فكري انتقل من الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض إلى الشاطئ الجنوبي بجيشه وإدارته ولقته وفلاحيه واقتصادييه ورجال الأعمال في حملة هكسوسية لو قدرت لمحتق الإنسان المغربي كما فعل المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا الشمالية والجنوبية . وبقدر ما كان أثر هذه الحملة قويا في تعميق التخلف الاجتماعي والاقتصادي في الشعب المغربي وبقدر ما حاول تمزيق المجتمع على أساس سلالي : عرب وبربر ، بقدر ما أتيحت الفرصة للحركة الوطنية لتعميق الوعي بين المثقفين وعموم الشعب لاستنصال جذور هذا التخلف والنضال لتحرير الإنسان المغربي من مختلف مظاهره ، ولتعميق الوحدة القومية بين العرب والبربر .

الفقر في المجتمع الريفي بالمغرب مثلا لم يكن ناشئا عن فقر الأرض المغربية . المغرب يتمتع بارض غنية كانت تصدر إنتاجها قبل الاحتلال الفرنسي والاسباني ، وقوي الإنتاج وازداد التصدير بعد الاستعمار . ولكن مع هذا الفنى كان هناك فقر وأضح مصدره اغتصاب الأرض من الفلاح ونشوء أقطاعيات كبيرة بين المستعمرين الفرنسيين والمتعاونين الذين ارتدوا في احضان الفرنسيين .

أصبح هناك إذن مجتمعتان : مجتمع الإقطاعيين ومجتمع عبيد الأرض الذين يقدمون حياتهم في خدمة الأرض ، ولكن إنتاجهم لغيرهم ، فهم لا يملكون .

والفقر في المجتمع الحضري مثلا ناشيء عن ظاهرتين :

أولهما : الهجرة الكبيرة من الريف إلى المدن هروبا من البطالة وبحثا عن عمل . والهجرة من الفقر كانت للفقر ، فبالإضافة إلى أن المستعمرين كانوا يكونون طبقة من العمال - وخاصة المهنيين - كان المهاجرون من الريف أكثر مما تحتملهم الصناعة أو تحويهم المدن ، فكانوا يعيشون على هامش العمل لانهم لا يجدون . ويعيشون على هامش المدن لانها لا تحتملهم ، وهم لا يحتفلون ضيقها وغلاء الحياة فيها ، وتكون ما يسمى بمدن القصدير ، وهي بؤرة خطيرة لكل مظاهر البؤس الذي تنتفي معه الكرامة الإنسانية أحيانا .

والظاهرة الثانية للفقر في المجتمع الحضري أن الغزو الاستعماري حمل معه غزو الصناعة الأجنبية ، وفسح لها إداريا مجال الغزو ، فكانت ادعى للاستهلاك ، وبذلك انهار المجتمع الحضري أو طبقة البرجوازية الصغيرة منه التي كانت تمش على الصناعات الحرفية والاتجار فيها . ولم يقدم الاستعمار لها البديل لسبل الحياة ، فكان انهيارها يحمل البؤس للإنسان الذي يعيش في المدينة .

أصبح هناك إذن مجتمعتان أو طبقتان اجتماعيتان : الإقطاعية التي انشأها وحماها الاستعمار ، والطبقة الكادحة التي تعيش مناضلة في سبيل العمل ومطاردة البؤس . وظهرت في المدن الكبيرة التي خلفت المدن التاريخية للمغرب طبقة بوجوازية تعيش على فئات الطبقة

لحريتها . ولذلك كان الشعر ، أكثر من البحث أو من مقالات وكتب الدعوة على فرار ما فعل قاسم أمين في مصر ، يتجاوز مع موضوع حرية المرأة ، وتمكينها من حظها في الحياة العلمية والاجتماعية وكان الشعر ايضا يعاقب الدعوة الى تعليم الشعب ويناضل مع المناضلين للقضاء على الميز الذي اصطنعه الاستعمار وهو ينشئ المدارس لتعليم أبناء الجالية الأجنبية ويسد الباب في وجهه أبناء المواطنين المغاربة . وكان الشعر ايضا يخوض معركة تحرير الفكر من الخرافات والاتصاليات التي التصقت به من عهد التخلف وشجعها عهد الاستعمار باعتماده على رجال الطرق وادعياء الدين . خاص الشعر الحركة الى جانب النثر الذي كان يستهدف توضيح اسس الاسلام حتى يكشف عن زيف ضلال الفكر . وكان الشعر في مرحلة البداية ( اوائل الثلاثينات ) يأخذ سبيل الهجوم المزودج على التخلف الفكري ودعائه من عملاء الاستعمار وهو بذلك يهاجم الاستعمار نفسه ، لأن كل دعوة للتحرر الفكري والاجتماعي هي في الوقت نفسه دعوة للتحرر السياسي . فالتحرر قيمة لم تكن تقبل التجزئ في نظر الادباء المناضلين الثوريين .

وكانت المسرحية منذ بداية حركة المسرح في المغرب اواخر العشرينات في طليعة الادب الذي انقلع مع التطور الاجتماعي ، عالج مشاكل البؤس واستغلال اقوياء المال والنفسود والسلطة للطبقة المستضعفة . كان المسرح يلجأ الى التاريخ او الى الروايات المترجمة ولكنه كان يتردد سريعا الى الواقع المغربي ليعالج مشاكل المجتمع من قضايا الزواج والطلاق والايثام والاوصياء الى قضايا العدالة الاجتماعية واستغلال النفوذ . حتى النماذج التي قدمها من التاريخ او من المسرح المترجم كان يصوغها صياغة مغربية فيبقى الهيكل اجنبيا او تاريخيا ، ولكن المضمون كان اجتماعيا مغربا .

لا أريد ان أقدم الأمثلة من الشعر او الرواية والقصة والمسرح ففي استطاعة اعضاء المؤتمر ان يعودوا الى النماذج المنشورة والى التحليلات التي كتبت عن تطور الحركة المسرحية في المغرب ، ولكن اردت فقط ان اسجل هذه الظاهرة المهمة في الادب المغربي الحسب وهي التصاق الادباء الثوريين بالمجتمع ، وفعالهم الايجابي مع الظواهر التطورية ، والتفاعل الايجابي الذي كان الادب فيه طليعة الثورة الاجتماعية بمقدار ما كان أغلبية الادباء في طليعة الثوريين على الاوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب .

صدر حديثا عن دار الطبيعة  
في سلسلة (( المفكر العربي ))

## اللاعقلانية في السياسة

نقد السياسات العربية في المرحلة  
مساهمة بهد الناصرية

ياسمين الحافظ

السياسة هي فن تحريك الأشياء والبشر . واذا تأملنا ضخامة ما لدى العرب من أشياء وبشر ، وفي نفس الوقت العجز عن تحريك هذه الأشياء وهؤلاء البشر لصالح الأمة العربية ، يتضح لدينا التأخر الذي يسم السياسات العربية ، تأخر تتكشف صورته المساوية والمذهلة اذا تذكرنا قزامة العدو الاسرائيلي . وهذا الكتاب محاولة لالقاء الضوء على مآزق السياسة العربية في هذه المرحلة ، ولالتقاط بعض تظاهرات التأخر في البنية السياسية العربية ، ولوضع بعض صور لرؤية صاحبة على الصعيد السياسي .

الاقطاعية ، وهي التي تكون الطبقة الوسطى ، ولكنها كانت تعيش على الصدفة ، لافرار اقتصادي أو اجتماعي لحياتها ، فهي تصبح من الطبقة الفقيرة كلما افتضت مصلحة الاستعمار تفجيرها ، وقد يصبح بعض افرادها من الاغنياء اذا كان من مصلحة الاستعمار كسب بعض المتمولين . ولهذا فهي لا تكون شريحة اجتماعية بالمفهوم الاقتصادي والاجتماعي .

وقد استمر هذا الوضع في خطوطه العامة في المجتمع المغربي بعد الاستقلال ، يمكن ان يكون قد تغيرت بعض ملامحه او اشخاصه ، ولكن جلوره العميقة ما تزال قائمة : لان الطبقة البورجوازية الصاعدة ورثت الهياكل الاقتصادية التي انشأها الاستعمار . ولان مفهوم التنمية الاقتصادية لم يتغير نتيجة لعدم تغير مفهوم الحكم الذي لم يحاول ان يقضي على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والادارية التي اسسها الاستعمار ، او يجتثها من اصولها ليبني على اساسها بنيات جديدة ، وانما تبنها وربما على اساس الاصلاح البطني والترميم .

الثورة الفكرية والسياسية التي قامت بها الحركة الوطنية كانت تعمل على التوعية بالاسباب العميقة لهذا الوضع الاجتماعي ، اسباب اقتصادية في جوهرها متخلفة عن وضع استعماري وعن التخلف في الحكم الوطني قبل الاستعمار وبعد الاستعمار . وهذه الثورة هي التي اوجدت التفاعل الذي نلاحظه بين الادب العربي والتطور الاجتماعي في المغرب . وقد يكون من حسن حظ الادب أن كثيرين من المثقفين سعدوا من الطبقة المناضلة اجتماعيا او سياسيا . فهم منتهمون في تفكيرهم لطبقتهم : وهم متجاوبون مع التطور الذي يشهرونه بانفسهم وبشاركون فيه بمحاولتهم ان يكون تطورا ايجابيا لصالح الطبقة الكادحة .

حينما عاشت قصائد وانشيد الشعراء مع الوحدة القومية ضد الفكرية البربرية التي ابتدئها الاستعمار في الجزائر اولا ثم في المغرب وحينما عاشت بعض قصائد المرحوم علال الفاسي مع الفلاح مثلا ، او بعض قصائد محمد الخلوي مع ماسح الاحذية والمذنبون وحينما عاشت رواية (( المعلم علي )) لعبدالكريم غلاب مع نضال الطبقة الكادحة في سبيل القوت والحرية ، وعاشت رواية (( الطيبون )) لربيع مبارك مع ضحايا ارض السروقة وعاشت بعض قصص مجموعة (( وادي الدماء )) لعبد المجيد بن جلون ، (( والممكن من المستحيل )) لعبد الجبار السحيمي ، و (( السقف )) لمحمد باعلو وقصص محمد بيبسي (( والارض حبيتي )) و (( مات قريبر العين )) لعبدالكريم غلاب مع ضحايا اغتصاب الارض وضحايا الاقطاعية المتحكمة التي تلجئ الانسان الى البحث عن كرامته المهذورة في حواري المدن او منمرجات الدواوير القصديرية على هامش المدن ، او في احراش الربف باحسا عن الارض التي اغتصبت او مناضلا حتى الموت في سبيل استرجاعها ، حينما عاش هذا الادب وغيره كثير مع هذا الوضع الاجتماعي لم يكن تجاوبا وصفييا مع واقع ، او تسجيلا لمرحلة اجتماعية على فرار ما كان الشعر والادب العربي عموما في الربع الاول من هذا القرن ، وانما كان ادبا متفاعلا مع المجتمع ومع تطوره نحو الافضل .

اقصد بالتفاعل انه لم يكن مواكبا للتطور الاجتماعي ولا ادبا وصفييا تسجيليا يعيش على ملاحظة الواقع ، ولكنه ادب ثوري يحاول ان يهدم الاسس التي قام عليها المجتمع الذي اصطنعه الاستعمار ، والذي وضع فيه الطبقة المنتجة في اسفل السلم حينما سلبها الارض وملكية كل وسائل الانتاج ليجعل منها طبقة العبيد تخدم الطبقة المستغنية . واعتقد انه نجح في هذا التفاعل فكان اصداق تعبير عن الثورة الفكرية التي استهدفت تطور المجتمع ولذلك يكون الادب قد قام بدوره كرائد في الثورة والتطور . واحب ان تلاحظوا انني لا اصدر الان احكاما قيمية نقدية بالمعنى الادبي للنقد . ولكنه تقويم ذو موضوع خاص هو التفاعل بين الادب وتطور المجتمع .

والحرية التي انارت طريق الادب المغربي ليعمق الشعور بالنضال ضد التمزق القومي وضد القسر والاستغلال واغتصاب الارض هي التي انارت الطريق امامه ليروي - مثلا - في وضعيه المرأة اغتصابا